www.ikhwanweb.com

Ikhwanweb Tarjamat

IkhwanScope.com

كيفية التعامل مع الوحشية

إن للإسلام حدودا دموية، لذلك كتب صمويل هنتنجتون في مقاله عن الشئون الخارجية في عام 1993، "صراع الحضارات؟" والذي قام بتوسيعه بعد ذلك في كتابه صراع الحضارات – الكتاب الأكثر بيعا - ولكن هذه المرة بدون علامة الاستفهام. وقال هنتنجتون أن خسوف الفترات الماضية من الصراع القومي والأيديولوجي، "خطوط معركة المستقبل" يمكنها أن تصور، "الخطوط الفاشلة بين الحضارات." ووفقا لما قاله هنتنجتون فإن الأجيال الحالية والقادمة يمكنها أن تقوم بتحديد ما هو هام جدا.

وأثناء كتابته "لصراع الحضارات؟" كان ذلك لفضائل الاكتساح التاريخي أو شيء من إرجاعه إلى أسس استعمارية خالصة. ويبدوا هذا معقولا إذا ما تم تطبيقه في "الكتلة الإسلامية الهلالية" من المغرب إلى جزر الهند الشرقية.

في البلقان على سبيل المثال والصرب الأرثوذكس الذين تسلطوا على رقاب مسلمي البوسنة ثم مسلمي كوسوفو. وفي أفريقيا فقد كانت هناك مناوشات أو حرب بين المسلمين والمسيحيين في نيجيريا والسودان وأثيوبيا. وفي القوقاز كان هناك حربا ضروسا بين الروس الأرثوذكس والمسلمين الشيشان، وكذلك حروب أرمينيا المسيحية وأذربيجان المسلمة، والمناوشات بين أوسيتيا ومسلمي إنجوشتيا.

وفي الشرق الأوسط قام أكثر من 500.000 جندي أمريكي بالتدخل لطرد القوات العراقية من الكويت، أما إسرائيل فقد تحملت سنوات عديدة من الانتفاضة الفلسطينية الأولى والتي أعقبت بعملية سلام مخادعة وهو ما أدى إلى الانتفاضة الثانية الأكثر دموية. وإضافة إلى ذلك، فإن الهند وباكستان في صراع دائم حول إقليم كشمير، وقد كان هناك توترات – في

بعض الأحوال أعمال عنف – بين الأقلية المسلمة الكبيرة في الهند والأغلبية الهندية كما هو الحال بين الأقلية المسيحية والأغلبية المسلمة في إندونيسيا.

أما بالنسبة لهنتنجتون، فإن كل هذا عائد إلى معركة بواتيه في عام 732 عندما قام شارل مارتل بصد الزحف الأموي الإسلامي وقام بحماية أوروبا وإبقائها مسيحية. وكتب قائلا، "لا يبدوا أن الحروب العسكرية التي كانت في القرون القديمة بين الغرب والإسلام سوف تنتهي، بل أنها سوف تكون أكثر شراسة."

وكما تقول التكهنات فإن ما يقوله هنتنجتون، بشكل أو بآخر، وَلَيدُ أحداث متتابعة.

وقبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر وقبل أن يتولي جورج بوش منصبه بكثير كانت روح العداء لأمريكا موجودة بين المسلمين، وقد كان هذا الشعور متزايدا في العالم العربي، ولذلك كان النشاط الإرهابي موجها لأهداف أمريكية. وبظهور القنوات الفضائية مثل قناة الجزيرة وقناة المنار التابعة لحزب الله، في بيوت الملايين من المسلمين وفي الأماكن العامة فإنها تعرض أخبارا وإعلانات وتغرز في الذهن أفكارا إسلامية تغذي روح العداء ضد أمريكا وضد إسرائيل وكذلك معادة السامية.

ولا يجب أن نندهش بعد ذلك من أن تكون ردة الفعل الإسلامية على أحداث الحادي عشر من سبتمبر مليئة بالفرحة. كما أن أطروحة هنتنجتون من الممكن أن تكون غير مؤكدة على أرض الواقع في يومنا هذا، فقد أوضح استطلاع رأي أن معدلات الشعبية الأمريكية قد هبطت حتى في البلاد الإسلامية والتي كانت قبل ذلك تميل لنا: ففي تركيا، على سبيل المثال، هبط المعدل من 52% عام 1999 إلى 12% عام 2008، أما في إندونيسيا فقد هبطت من 75% إلى 37% في نفس المدة. وقد انخفضت هذه النتائج بشكل أكبر في ضوء المساعدات الإنسانية الكبيرة المقدمة من أمريكا لإندونيسيا بعد ما حدث في تسونامي عام 2004، ويمكن أن نقول بأن نفس الشيء قد حدث في باكستان حيث انخفضت الآراء تجاه الولايات المتحدة ووصلت أقل مستوياتها بالرغم من المساعدات الأمريكية الكبيرة التي أعقبت زلزال 2005.

ولم تكن ظاهرة الغضب الإسلامي موجهة ضد أمريكا وحدها، ففي بلاد مثل أسبانيا وهولندا وبريطانيا العظمي وفرنسا وألمانيا – وهي بلدان لها مواقف متنوعة في مواقفها

السياسية الخارجية، ولها تاريخ استعماري في العالم الإسلامي – قامت مخططات الإرهاب والهجمات الإرهابية، وعمليات القتل والشغب الكبير قامت بسد الثغرة التي تفصل بين هؤلاء الذين تم إغضابهم وبين الأقليات المسلمة المتطرفة في المجتمعات المحيطة بهم. وحتى في دولة بلجيكا الصغيرة المسالمة والتي كانت حكومتها من أشد المعارضين للحرب في العراق وقامت بالخروج من هذه اللعبة احتراما لحساسية المجتمع المسلم، فإن حي **Molenbeek** في بروكسل قد تحول إلى أرض خصبة لآلاف المجاهدين وفقا لما ذكرته جريدة **Het Volk** الفلمنكية.

وبانتشار هذه الاتجاهات والتي ما زالت تنتشر، فإن هناك شكلا آخر من المعارضة يمكننا إدراكه اليوم. وعلى العكس من تكهنات هنتنجتون فإن الصراع المنتشر لا يتسم بكونه صراعا بين الحضارات فقط، بل أنه صراع داخل الحضارات أيضا، ولا يوجد مثل ذلك سوى في العالم الإسلامي.

ومرة أخرى ننظر في محيط الهلال الإسلامي حيث أدرك هنتنجتون المنهج العدائي بين الإسلام والغرب. ففي البلقان قام حزب الناتو بالتدخل في البوسنة وفي كوسوفا قاموا بحماية المسلمين وإنهاء نظام سلوبودان ميلوزوفيتش الصربي، وفي أفريقيا ساعدت الوساطة الدبلوماسية الأمريكية في وضع حد للحرب الأهلية في السودان والتي استمرت 22 عاما وتحقيق استقلال حقيقي للمسيحيين في الجنوب. وفي إسرائيل توقفت الانتفاضة الثانية وما لحقها من موجات من العمليات الانتحارية من خلال العمليات المضادة للعصابات ومن خلال السياج الفاصل.

أما في القوقاز، فإن الحرب بين أرمينيا وأذربيجان فقد انتهت بعقد اتفاق وقف إطلاق النار والذي ما زال قائما حتى اليوم أما الشيشان فقد مال الروس للقيام بحملة عسكرية وحشية قام بها الرئيس الروسي فلاديمير بوتين. أما في كشمير فلم يكن هناك قتال مباشر بين الهند وباكستان؛ وقد نعي رئيس الجماعة الجهادية الرئيسية يوليو الماضي عندما قام الرئيس الباكستاني برويز مشرف "بقتل قضية كشمير." تماما كما حدث في جزيرة مندناو

في الفلبين حيث تم تعطيل حركة الإسلامي المتطرف أبو سياف من خلال التحالف بين الفلبين والجيش الأمريكي.

وفي الحقيقة فإن الحروب في المدار الإسلامي لم تنتهي؛ فصواريخ القسام التابعة لحماس ما زالت تمطر إسرائيل وكذلك حزب الله ، وهو زراع إيران، قد تم تسليحه بشكل كامل مرة أخرى بعد حرب صيف 2006 في لبنان. وفي يناير 2007 قامت أثيوبيا بغزو الصومال لإسقاط نظام يشبه نظام القاعدة، وتمت مهاجمة بومباي بطريقة مشابهة لهجمات مدريد التفجيرية والتي هاجمت خطوط السكك الحديدية عام 2006. أما الأقلية المسلمة في تايلاند فقد كانت ضجرة وعنيفة.

والجدير بالملاحظة أن الحروب التي تعكر صفو العالم الإسلامي اليوم ليست في محيطه، ولكنها في مركزه، كما أنها تندلع بين المسلمين أنفسهم. وقد ارتكب النظام إبادة جماعية في دارفور وهو ما كان قاسيا على المسلمين والسود الذين كانوا ضحاياها. وقد انتقل الفلسطينيون من مرحلة الانتفاضة إلى مرحلة الحرب الأهلية ففي عامي 2006 و 2007 قتل العديد من الفلسطينيين علي أيدي فلسطينيين أمثالهم وعلى أيدي إسرائيليين بصورة وحشية. وفي لبنان كانت هناك مصادمات دموية بين الشيعة والسنة والدروز هذا العام. وفي العام الماضي اضطرت الحكومة اللبنانية لإرسال قوات إلى معسكر اللاجئين الفلسطينيين لقمع محاولة ثورية من قبل جماعة إرهابية تحت رعاية سوريا.

ولم ينتهي الأمر إلى هذا الحد، فقد كانت المملكة العربية السعودية تحت هجوم القاعدة منذ عام 2003، وفي نوفمبر 2005 عانت الأردن من تفجيرات انتحارية مدمرة في ثلاثة فنادق في عمان حيث كان ما يقرب من معظم الضحايا من السنة مثل من قاموا بالتفجيرات. وفي أفغانستان قاتلت حكومة حامد كرزي (البشتوني) ثورة للإسلاميين قام بها بقايا من طلبان وحلفائهم ومعظمهم من البشتون. وفي باكستان تحولت محاور النزاع من الشرق إلى الغرب حيث توجد مناطق كبيرة واقعة تحت سيطرة المسلحين الإسلاميين. ففي 2007 فقط قتل أكثر من 1.500 باكستاني في عمليات إرهابية ومن بينهم رئيسة الوزراء السابقة نظير بوتو.

أما في العراق، فقد قتل حوالي 4.000 جندي أمريكي منذ تحرير البلاد في أبريل 2003، وهذا العدد لا يمثل شيئا بجانب من قتل من العراقيين في الصراع بين الطوائف بعضها البعض وداخل الطوائف أيضا؛ فهناك قتال بين السنة والشيعة والأكراد، وصراع بين السنة والسنة، وبين الشيعة والسنة، وبين الشيعة والشيعة. وعلى سبيل الحصر فإن عدد المدنيين الذين قتلوا منذ بداية العام 2006، عندما أصبح القتال الطائفي جادا، قد تعدى 100.000 (وفقا لما ذكرته مؤسسة بروكينجز).

وتقوم هذه الأفعال على العمل بمثابة رسائل تذكير لحقيقة أخرى مهمة ففي السنوات التي سبقت أحداث 9/11 مباشرة لم يكن هناك مسلمون يُتوقع دخولهم قائمة الأهداف الإرهابية. وفي السنوات الأخيرة، كان المسلمون أنفسهم من أكثر ضحايا مؤيدي الدين. وفي 2007 قتل حوالي 8000 شخص بسبب الإرهاب في الشرق الأوسط والقليل منهم كان بسبب إسرائيل. وقد كان هناك ما يقرب من 270 عملية انتحارية في عام 2007 من بينهم 240 وقعت في البلدان الإسلامية، كما أن ما يقرب من 100 مسجد كانت هدفا للهجمات الإرهابية والعديد منها على أيدي المسلمين.

وبإبعاد النظر يمكن للمرء ملاحظة أن الصراع داخل الإسلام نفسه قديم بقدم الدين.

كان أول خليفة للمسلمين – الخلفاء الراشدين – هو أبو بكر والذي من المحتمل أن يكون قد سُم، وأما الثلاثة الذين أتوا من بعده فقد تم اغتيالهم جميعا، وبمقتل الخليفة الثالث (عثمان بن عفان) ظهرت طائفة الشيعة في الإسلام. ثم كانت الثورة العباسية التي أطاحت بالدولة الأموية في القرن الثاني، أما القرن التاسع فقد شهد حروبا داخلية بين ولدي الخليفة الخامس للدولة العباسية (هارون الرشيد). كما أن لدى القاعدة نفسها سوابق إسلامية قديمة، فقد كان الخوارج في القرن الثامن، على سبيل المثال، مشهورون بتزمتهم ولجوئهم الدائم إلى العنف وإيمانهم بأن خصومهم من المسلمين قد كفروا وقاموا بمعاملتهم على هذا الأساس.

وللتأكد من هذا فإن الصراع الذي لا ينتهي لم يكن سمة الحضارة الإسلامية وحدها بل إن تاريخ الغرب كان مليئا بالتنافس الشديد والعنف القاسي والتعصب الديني. وبشكل عام، فإن هذه الصراعات قد تلاشت وانتهت بتبني الغرب لأشكال الديمقراطية في الحكم.

وعلى العكس فإن الأمثلة التأسيسية للإسلام لم تستمر فقط ليومنا هذا بل إنها قد كثفت بطريقة أو بأخرى أيضا.

وقد كانت هناك حروبا أهلية شرسة في الجزائر ولبنان والعراق واليمن وكذلك حربا أكثر شراسة بين إيران والعراق، حتى أن قائمة الاغتيالات السياسية في العالم الإسلامي منذ الحرب العالمية الثانية قد قربت على تعدي 100 اسم، كما أنها تضم اثنين من رؤساء الوزراء ورئيسا مصريا، ورئيسين ورئيس وزراء في بنجلاديش، وثلاثة رؤساء وزراء ورئيس في إيران، وملك ورئيسين للوزراء في الأردن، ورئيسين ورشح رئاسي ورئيس وزراء ورئيس وزراء سابق في لبنان، ورئيسا سوريا، وملك ورئيس وزراء سابق في العراق، وكذلك رئيس ورئيس وزراء ورئيس وزراء سابق في باكستان، وملك للسعودية؛ وهذه هي المحاولات الناجحة فقط. أما بالنسبة للانقلابات العسكرية فهي طويلة، ففي سوريا وحدها حدث ما لا يقل عن تسعة انقلابات منذ عام 1949.

وهناك العديد من التفسيرات التي قدمت لهذا التاريخ من العنف. فهناك تفسير يقول بأن السبب كان يتمثل في غياب الديمقراطية وهو الأمر الذي منع فرص التغيير السياسي غير العنيف وقام بإدخال أغلب أشكال الانشقاق في المساجد. وهناك تفسير يقول بأنها لعنة البترول التي أتاحت الفرصة لدول مثل دولة صدام حسين في العراق بأن تمول حروبا مكلفة وشراء الدعم السياسي ودعم البيروقراطية المتصلبة ومنع التعددية وتحديث الاقتصاد.

وهناك تفسير يقول بأنها العصبية القبلية في الإسلام، وخاصة عند العرب والعشائر والمبادئ المتأصلة فيهم، مثل الفخر بالنسب والعائلة والسعي لإنشاء سلالات بعيدا عما هو خارج العشيرة. ثم إن هناك تفسير يقول بأنه التنازل الأخلاقي عن العرش في الطبقة الإسلامية المثقفة والتي وقعت فريسة لفكرة أخذت طريقها من التعصبية إلى الاشتراكية إلى أفكار العالم الثالث. وهناك تفسير يقول بأنه تاريخ الإسلام نفسه والذي قام بجعل الغزو العسكري فضيلة ارتبطت بقوة بجميع السلالات الحاكمة حتى سقوط الخلافة عام 1924 على يد التركي مصطفي كمال أتاتورك، والذي قام بعمل نموذج للسلطة الدينية والسياسية معا.

وهناك حقيقة أيضا تتمثل في أن الأنظمة الاستعمارية الأوروبية قد مكثت طويلا في الممتلكات الشرق أوسطية وقد كان لذلك تأثير جعل من حركات أكثر أو أقل حرية مثل حزب

الوفد المصري أضحوكة عند الغرب وغير قادر على تحقيق الأهداف القومية من خلال الوسائل السلمية. وكنتيجة لهذا الفشل فإن العالم الإسلامي لم يستطع أن يستسيغ الليبرالية قبل أن يقوم بتجربتها على الحقيقة، وقد نبذت الأحزاب الليبرالية التقليدية والسياسات لصالح البدائل المتطرفة، مثل الإخوان المسلمين والقومية العربية العنيفة المتمثلة في أحزاب البعث في كل من سوريا والعراق وكذلك جمال عبد الناصر والضباط الأحرار في مصر وجبهة التحرير القومية الجزائرية وغير ذلك. وبالرغم من الفشل البين لهذه الحركات، وانتصار السياسات الليبرالية من مدينة المكسيك إلى وارسو ومنها إلي سول، لم تستطع الليبرالية مطلقا أن تستعيد اسمها مرة أخرى في العالم الإسلامي.

ومن الصعب أن نقول كيف نرجح أهمية هذه العوامل، فهي تقوم بعضها بوضوح.

وبينما لم تكن المجتمعات الإسلامية والعربية هي الوحيدة التي تعاني من هذه العوامل فإنهما يتشاركان معا في طريق واحد في هذه المجتمعات وهو طريق تقديم ثقافة الفشل الدائم وتشديد الأزمة.

وقد أصبح هذا الأمر أكثر وضوحا لهنتنجتون عندما كتب، "صراع الحضارات؟"

وقد انتهت الحرب الإيرانية والعراقية عام 1988 وقد جاء موت آية الله خوميني في العام التالي ليهدئ من حدة الثورة الإيرانية. أما الحرب الأهلية في لبنان واليمن فقد وضعت أوزارها تاركة جميع الأنظمة القائمة على حالها. وقد كان سقوط الاتحاد السوفييتي بمثابة انتهاء الحرب الباردة. ولقد فقدت الاشتراكية تأييدها وبدأت معظم أنظمة الشرق الأوسط في الاهتمام بإصلاح اقتصادها. ومن الخارج، علي الأقل، يمكن للواحد أن يبدأ في تخيل "شرق أوسط جديد،" كما فعل شيمون بريز الإسرائيلي في كتاب 1993.

ولكن انهيار الاتحاد السوفييتي (ويوغوسلافيا) كان له عوامل أخرى مهمة، فقد أعاد هذا تشكيل خريطة العالم الإسلامي من خلال ضم دول جديدة مستقلة من الاتحاد السوفييتي له، وقد كان هناك حركات استقلال في بلدان مثل الشيشان والبوسنة والتي صبغت بصبغة إسلامية. وفي أماكن أخرى بدأ الشعور المؤيد للإسلام – والذي رأيناه بوضوح في الثورة الإيرانية عام 1979 وحرب المجاهدين ضد الاتحاد السوفييتي في أفغانستان – في الانتشار بشكل سريع. وقد تمت مساعدتها بشكل وافر من خلال التقدم في الاتصالات ومن خلال إنشاء

آلاف المدارس، التي تقوم السعودية بتمويلها، حول العالم والتي تدعوا لنموذج الإسلام المتصلب. ولو أن فكرة "الحضارة الإسلامية" ربما كانت قد تبدو لمعظم المسلمين الذين يعيشون داخلها منالا بعيدا، فقد أصبح من الممكن في التسعينيات على الأقل تخيلها كتعبير ليس عن الهوية الدينية المشتركة فقط، بل للمشاركة في التطلعات السياسية أيضا.

وبشكل أكثر تعمقا فقد استُثمر هذا المفهوم من المتطرفين الإسلاميين الذين لا يمثل إلغاء الخلافة لهم سقوط بنيان قديم بل إنه يمثل كارثة تاريخية. وبالنسبة لهم فإن التسعينيات تمثل مجموعة من الفرص، فقد قرروا أنهم ما داموا غير قادرين على إزاحة هذه الأنظمة المرتدة من الشرق الأوسط من خلال الحملات الإرهابية فإنهم سوف يقومون بالتركيز على إزاحة نصير هذه الأنظمة – الولايات المتحدة – من المنطقة.

ففكرة قتل أعداد كبيرة من الغربيين، وخاصة الأمريكيين قد كان لها ميزة إضافية لكونها مقبولة، وسبب قبولها هو انسحاب إدارة ريجن المتهور من بيروت بعد تفجيرات 1983 ثكنات جنود البحرية والسفارة وبعدها بعقد، وخلال إدارة كلينتون، كان هناك انسحاب متهور أيضا من الصومال وهو الذي يؤيد أن أعظم قوة في العالم يمكن إخافتها بسهولة. وسبب كونها شائعة هو أن العالم الإسلامي بأسره يبغض الولايات المتحدة على الأقل بسبب دعمها للأنظمة المرتدة التي يبغضها المتطرفون.

أما إستراتيجية تصاعد الهجمات الإرهابية ضد الأهداف الأمريكية فقد كانت تُدبَّر من خلال أبو بكر ناجي الباحث النظري (وهذا هو الاسم المستعار) وقد نشر على شبكة الإنترنت في عام 2004.

وعقب هجمات 9/11 قامت إدارة بوش وحكومات أخرى بوصم أسامة بن لادن بعار أنه منبوذ بين المسلمين، ولكن معظم الأدلة تقول غير هذا؛ فقد كانت هناك مظاهرات عارمة لتأييد بن لادن في كل من الفلبين وإندونيسيا. أما في المناطق المسلمة في تايلاند فقد أصبح اسم أسامة منتشرا بشكل مفاجئ بين المواليد الجدد (بنين أو بنات)، هذا وفقا لتقرير أكتوبر 2001 في هندوستان تايمز، أما صور بن لادن فقد كانت تباع بشكل كبير من بنجلادش إلى نيجيريا. وقد قدم استطلاع رأي أن 42% من الكويتيين – قامت أمريكا بتحرير أرضهم منذ عقد – يرون بن لادن "مقاتلا حرا". ووفقا لما قاله قائد فتح في نابلس فإن هجمات الحادي

عشر من سبتمبر جعلت من بن لادن "الرجل الأكثر شعبية في الضفة الغربية وغزة بعد عرفات."

(Pew Global وربما لا تتلاشي شعبية القاعدة قريبا ففي العام 2004 وجد من الأردنيين و 56% من الباكستانيين ينظرون إلى بن لادن نظرة 55% Survey) تفضيل. وبحلول العام 2002 قامت وكالات الاستخبارات الأوروبية بكتابة تقرير حول زيادة حادة في جهود أعمال التنظيم. ومما يدعو للقلق فإن القاعدة تستطيع أن تحول نفسها من جماعة إلى حركة فهناك جماعة التوحيد والجهاد لأبي مصعب الزرقاوي والجماعة السلفية للدعوة والقتال في الجزائر، كلهم قد أقسموا بالولاء لأسامة بن لادن. وهناك جماعات أخرى مثل الجماعة الإسلامية في إندونيسيا والتي بدأت في محاكاة أساليب القاعدة من خلال مهاجمة أهداف غربية بارزة. كما أن هناك خلايا بدأت في الظهور في غزة. ثم إن القاعدة أرادت أن تحاكي مقتل 52 شخص في تفجيرات لبنان، يوليو 2005، وقامت بالتخطيط لقتل رئيس الوزراء الكندي.

وكما كتب ناجي في التعامل مع الوحشية، ثم كان الغزو الأمريكي لأفغانستان والعراق وهو ما كان بمثابة صدمة كهربائية على من يرغبون في الجهاد. وحتى قبل إسقاط الولايات المتحدة لطالبان فإن التليفزيوني المتطرف، الشيخ يوسف القرضاوي، كان قد قال بأن "الشريعة الإسلامية تقول بأنه إذا تم مهاجمة بلد إسلامي فإن على البلدان الإسلامية الأخرى مساعدتها بالنفس والمال حتى يتم تحريرها،" وقد لقيت مناداته اهتماما كبيرا. وبحلول أواخر العام 2006، استطاعت القاعدة أن تحشد ما بين 5.000 إلى 10.000 عنصر في العراق وأغلبهم – وما يقرب من جميع قادتهم البارزين – قد جاءوا من الخارج. وبينما لم يكونوا، مطلقا، جزءا من التمرد السني الذي سيطر على البلاد حتى العام الماضي فإنهم قد قاموا بحوالي 90% من التفجيرات الانتحارية.

أما نهاية العام 2006 فقد كانت النقطة التي يمكن عندها أن تنجح إستراتيجية ناجي على أرض الواقع، والتي تسعى لإيجاد "مناطق محررة" تحت سيطرة جماعات مثل القاعدة. فقد قامت القاعدة بتحرير مقاطعة الأنبار في العراق من خلال حملة إرهاب لا هوادة فيها ضد السنة، كما واصلت أيضا سياسة المذابح ضد الشيعة العراقيين بنية خلق حالة من

الفوضى في البلاد. أما في الولايات المتحدة فإن تقرير مجموعة دراسة العراق التي يترأسها جيمس بيكر ولي هاملتون قد أوصى بأن لا يتم انتداب المزيد من القوات الأمريكية في العراق، في الوقت الذي بدأ فيه الحزب الديمقراطي – الذي كان يدعم قرار غزو العراق بشكل كبير - بإصدار مطالب أكيدة بالانسحاب الفوري من العراق.

وإذا ما أصبحت هذه المطالب سياسة أمريكية فإن إستراتيجية ناجي ربما يتم إثباتها.

ويمكن لسقوط هيبة أمريكا والتي تنبأ بها أن تنتشر بشكل سريع في العالم الإسلامي.

فالانسحاب الأمريكي المتهور من العراق قد رآه المجاهدون وأتباعهم بالقياس مع الانسحاب السوفييتي من أفغانستان عام 1988 كدليل على هزيمة القوة العظمي ومبشرا بهزيمة عدوهم هزيمة ساحقة. كما أن لدى القاعدة محفزات لتطبيق النموذج العراقي – التعامل مع الوحشية – في البلدان الإسلامية الأخرى، وخاصة الدول العلمانية الضعيفة مثل الأردن المرتدة. ثم إن هيبة القاعدة يمكن دعمها بشكل كبير من خلال تقديم أعداد كبيرة من المتطوعين الذين يمكنهم تعويض من فقد.

ولكن الأمور لم تكن لتسير هكذا، فقد مضي الرئيس بوش قُدُما في إستراتيجية التجييش تحت قيادة قائد جديد يستخدم تكتيكات مدروسة لمكافحة التمرد والتي ظهرت نتائجها بشكل سريع، حيث بدأت صفوف القاعدة تتلاشى وجفت منابع المقاتلين الأجانب.

وفي أواخر 2007، قبض الجيش الأمريكي على خطابات لاثنين من أمراء القاعدة في العراق. أما أحدهما فكان يقول: "كان هناك 600 مقاتل فقط في قطاعنا قبل أن يتحول السنة 360 (درجة) في مواقفهم... قام العديد من مقاتلينا بالكف عن القتال والبعض الآخر فر من القتال... ونتيجة لذلك فإن عدد جنودنا قد أصبح 20 أو أقل. لقد تمت معاملتنا بشكل سيء وضُلِّلنا وغُرر بنا من قبل بعض من إخواننا الذين كانوا دائما جزءا من حركة الجهاد، لذلك فإننا لا يجب أن نكون رحماء مع أمثال هؤلاء الخونة، فإما أن يعودوا إلى طريق الحق أو يتم التخلص منهم نهائيا."

أما الأمير الثاني فقد عرض شهادة مشابهة: "إن الدولة الإسلامية في العراق (القاعدة) تمر بأزمة استثنائية وخاصة في مقاطعة الأنبار، فطرد القاعدة من الأنبار قد أحدث هزيمة نفسية وضعفا، كما أوجد رعبا وخوفا وعدم الرغبة في القتال."

ولم تقم القاعدة بالفرار من العراق فقط، ففي صيف 2007 حذر تقييم للمخابرات القومية أن الجماعة الإرهابية تقوم بالاستعداد مرة أخرى لضرب الولايات المتحدة. ثم بعد تقييما مختلفا بشكل مدهش لواشنطن بوست، (CIA) أقل من عام قدم مايكل هايدن مدير واضاف قائلا: "وللأخذ في الاعتبار فإننا نقوم بعمل جيد فهناك هزيمة إستراتيجية قريبة للقاعدة في العراق وهزيمة أخرى إستراتيجية في السعودية، كما أن هناك تراجع عالمي للقاعدة بشكل ملحوظ... حيث أن الكثيرين في العالم الإسلامي يرمون وراء ظهورهم هذا الشكل من الإسلام." كما كشفت الاستطلاعات عن انحدار لمستويات الدعم للقاعدة والجماعات الإسلامية الأخرى في العديد من بلدان العالم الإسلامي؛ ففي باكستان هزمت الأحزاب الإسلامية في الانتخابات البرلمانية في فبراير. ولقد قتل قادة بارزون في القاعدة في أعمال وحشية على الحدود الباكستانية المتاخمة لأفغانستان.

وباختصار، فإن نجم القاعدة بدأ يخفت بشكل ملحوظ ومن المهم معرفة الأسباب.

ويمكن أن يكون هناك سؤال يقول بأن الإعدادات المفرطة كانت جزءا من تفسير مثل هذا ولكن الحقيقة أن هذه الإعدادات لم تكن أبدا لتنجح دون مساعدة السنة الذين – حتى عام 2007 – كانوا يقدمون الملاذ والدعم لرجال مثل الزرقاوي وأتباعه. وقد جاء هذا التحول نتيجة لمعاملة القاعدة البربرية للسنة العاديين وقادتهم القبليين خلال فترة "الخلافة في الأنبار".

ويمكن لهذا أن يثير تساؤلا وهو، لماذا تضع القاعدة نفسها في حالة حرب مع الحشود في المنطقة بدلا من استغلال هذه الحشود كحلفاء في حربها ضد أمريكا والحكومات المرتدة؟ وتتمثل الإجابة في طبيعة الحركات المجاهدة.

وقد كتب سيد قطب، الأب الروحي للقاعدة، في كتابه معالم على الطريق عام 1964، "إن المجتمعات القائمة كلها مجتمعات جاهلية،" ويشير قطب هنا إلى عالم العرب الوثني قبل الإسلام والذي عاش في "جهل بهدي السماء." فقد كان قطب وأتباعه وورارثوه الروحيون وما زالوا في حرب مع العالم الحديث بحكومته الليبرالية الديمقراطية وأخلاق الغرب الاجتماعية، كما أنهم يميلون للقتل تجاه المسلمين المبتدعين وخاصة الشيعة منهم، ويرفضون بشكل صارم المحاولات الإسلامية لإيجاد نوع من الحداثة الوسطية بين الغرب

والنموذج الإسلامي؛ فهم يريدون الإطاحة بجميع الأنظمة العلمانية المسلمة في بلدان مثل إندونيسيا والأردن وكذلك الأنظمة المسلمة الدينية مثل السعودية والذي لا يزال محافظا على علاقاته بالغرب.

كما أنهم في حرب كذلك مع العالم الذي سبق هذا العالم الحديث مثل المجتمعات القبلية التي يتم فيها انتقال السلطة من الأب إلى ابنه حيث أن الإسلام دين وليس مادة قانونية أو أيديولوجية سياسية. وتقوم الأنظمة الإسلامية بالتعامل بكل حرص مع القبائل الموجودة في بلدانهم، فيقومون بمدهم بالأموال والوظائف الحكومية والأسلحة الصغيرة وبعض الألقاب الشرفية الأخرى وفوق كل هذا يتركونهم ليحكموا شئونهم الداخلية، وقد كان هذا الأمر شائعا حتى في العراق أيام صدام حسين. أما المجاهدين والهياكل القبلية فإنها تقدم نوعان من التحدي السياسي: الأول، أنها تغرس في الذهن شعورا بالقوة للهوية المحلية بالعكس من تلك التي كانت تؤيد الإسلام بقوة؛ الثاني، أن أنظمتهم للمناصرة والأعمال الخيرية تكون علي طريقة الأجندة الجهادية أو التغيير المتطرف للمجتمع.

وقد كان هذا الموقف المعادي للقبلية مصحوبا بالوحشية المطلقة التي مارسها المجاهدين والتي أثبتت أنها ليست من أفعال القاعدة المخربة في العراق، كما لم يكن هذا هو الأسلوب الوحيد لديها للتخريب. وبسبب التحول، في أعقاب 9/11 من جماعة إلى حركة فقدت قيادة القاعدة سيطرتها، وهو ما يسميه الغرب ضب النفس.

وقد كتب أيمن الظواهري للزرقاوي في خطاب تم الاطلاع عليه في 2005 يأمره فيه بعدم قتل المسلمين وإن كانوا شيعة يقول فيه، "إنني أكرر تحذيري من مفارقة الجماعة مهما كانت الخاطر،" ولكن الزرقاوي تجاهل النصيحة. ولقد انعكست آثار هذا القتل للجموع المسلمة على الدعم الشعبي. والأسوأ من ذلك أن القاعدة قامت بمعارك مع بلدان أخرى بشكل يعارض نشاطاتها. وعلى سبيل المثال ففي العام 2002 قام وزير الداخلية السعودي الأمير نايف برفض وجود القاعدة حتى في بلاده. وبعد أربعة سنوات من هجمات القاعدة الغريبة على المملكة هدد نفس الأمير "بقطع أسنة" كل من ابن لادن والظواهري.

ومن الملاحظ أن فشل القاعدة وتقلباتها بدأت تغرز في النفوس شكوكا حول هدفها الأساسي. وقد جاء هذا الشعور بنشر وثيقة الطريق الصحيح للجهاد في مصر والعالم وهو

الدحض النظامي لما تؤمن به القاعدة وأساليب سيد إمام الشريف. وتستمد أهمية هذا العمل من موقف مؤلفه. وقد كان الدكتور فضل أول أمير للجهاد الإسلامي المصري وهو الذي قام في 1988 بإبداع مؤسسات للتجهيز للحرب المقدسة.

وهناك العديد من النظريات التي تتعلق بالسبب الذي جعل الدكتور فضل – مسجون حاليا في مصر – بكتابة هذا الكتاب؛ فقد امتد هذا من الخصام الطويل والشخصي مع الظواهري إلى إجبار الحكومة المصرية له لتغيير مواقفه الأيديولوجية بشكل كامل. ومهما كانت القضية فإن معناها الأساسي يتمثل في إصرارها على أن النشاطات الجهادية يجب أن تخضع للاعتبارات الأخلاقية المعتادة. ويكتب دكتور فضل، الجهادي، لا يمكن السرقة من أجل الجهاد أو من أجل إسقاط الحكومات المسلمة القائمة أو الحكومات الأخرى المرتدة أو حتى عقوق الوالدين. وصرح دكتور فضل بشكل صارم أن هناك آباء يقولون أنهم قد عرفوا بذهاب أبنائهم للجهاد عندما تنشر صورهم في الصحف موتى أو سجناء.

وحتى الآن، وبعد هذه المحادثة، فإن فكرة الدكتور فضل ليست فكرة حديثة لمفكر علماني. فضلا عن أن بيانه الرسمي يرفض التطرفية المتأصلة للجهاد لصالح القيم الحنيفة المحافظة والعودة إلى نوع من المعني الإسلامي. والأكثر من ذلك إنه اعتراف صريح بالواقعية؛ أن الانقياد لرجل مثل أيمن الظواهري يمكن أن يقود المسلمين إلى طريق مسدود تلو الآخر.

كم انتشر هذا الاعتراف؟وقد استمر ذلك يُري كما كانت عواقبه. وكما لاحظ ماكس بوت في التعليق رقم 1، فإنه لا تأخذ تنظيما كبيرا ولا أموالا طائلة لارتكاب هجمات إرهابية مخربة كما أظهرت جماعات إرهابية مرونة واضحة في مواجهة أكثر العوائق تخريبا.

وعلاوة على ذلك، فإنه بالرغم من أن القاعدة قد تأذت بشكل خطير في العام الماضي فإن حزب الله أصبح أقوى بشكل متزايد وأصبح لديه مزيد من الثقة. وقد حافظت الإدارة الأمريكية على هدوئها في العراق وربما تكسب الحرب في النهاية، ولكنها من الممكن أن تفقد هذا الهدوء في حال مطالبة إيران بأن تصبح قوة نووية. وقامت إسرائيل بهزيمة الانتفاضة الثانية لياسر عرفات ولكنها الآن قلقة من أن تقوم انتفاضة ثالثة تعمل حماس على التخطيط والتحريض لها.

لم يزل انحدار القاعدة يقدم صورة مصغرة من الحضارة التي تقوم بهدم نفسها من الداخل. فلدينا هنا حركة ترى التفجيرات – التي فيها تهلكة للنفس – على أنها فعل جوهري لإثبات الذات، حركة ترى نفسها كحام للإسلام وتقود إلى طريق الأمة الإسلامية الحقيقية ولكنها في حروب دائمة مع المجتمعات الإسلامية الذين هم سكانها، كما أنها حركة لهجماتها على العالم الإسلامي تأثير سريع المفعول في إنهاء وجودها.

وهناك نموذج مشابه انتهى بانتهاء أنظمة القومية العربية في الخمسينيات والستينيات، ومثل هذه القوى تعمل اليوم في إيران؛ حيث تبدوا النشاطات الثورية للنظام الإيراني – من دعم حماس إلى تسليح حزب الله وتمكينه من لبنان إلى تطوير أسلحتها النووية – قد تم تصميمها بهدف موازنة قوى تنوع الاستياء الداخلي للنظام.

أما بالنسبة لكيفية تواصل الولايات المتحدة وحلفائها مع هذه الحقيقة الجديدة، فإن هناك احتمال يمكن استبعاده لأنه لا يمكن استخلاص الشيء الجيد بوضع أيدينا في شيء قذر. وهذه تقريبا رؤية اليمين الذي يؤمن بالحرية ومعاداة الشيوعية، وربما كانت رؤية أغلبية اليسار. ولكن الرؤية التي تثير تساؤلا: الجميع يذكر الجانب الإسرائيلي والسماح له بأخذ موارد الطاقة في الشرق الأوسط إنما تعد مصلحة أمريكية حيوية وسوف تظل هكذا مدة عقود. فالعالم الإسلامي يعد جزءا من العالم الغربي بشكل معقد وخاصة في أوروبا. ولن يتوقف تهديد الإرهاب العالمي حتى وإن فعلت القاعدة ما دامت هناك نظام يرعي الإرهابيين أو يدعمهم ويمدهم بأسلحة الدمار الشامل التي تهددنا بشكل مباشر.

وهناك خيار آخر، مقرون بما يسمي المدرسة الواقعية، يؤكد بدون استثناءات أن الولايات المتحدة يجب أن تتواصل مع العالم الإسلامي بشكل أكبر أو أقل وبدون السعي لتغيير هذا العالم. وهذه هي الرؤية التي تحتاج الكثير للترغيب فيها. أما بالنسبة لرجال دولة أقل شأنا فإن الواقعية تنحرف بسهولة إلى انصياع سلبي في وضع راهن غير متسامح أو إلى تغييرات غير متسامحة إليه. وهناك دليل يرجع إلى استعداد كولن باول، رئيس هيئة الأركان المشتركة، خلال فترة بوش الرئاسية الأولى، لقبول غزو صدام حسين للكويت عام 1990 كأمر واقع.

أما الرؤية الثالثة، والتي يتقاسمها كل من المحافظين الجدد والليبراليون الدوليون، هي أن الولايات المتحدة والغرب ليس لديهما خيار سوى السعي بشكل فعال لعمل إصلاحات داخلية في البلدان الإسلامية. وليس هناك داعي لقول أن مثل هذا الأمر محاط بالمخاطر وربما يحدث فيه ميل عن الطريق الصحيح أو يصيبه الفشل. ولكن هناك نموذج صحيح يمكنه المعالجة، فإن لم يمكنه معالجة أمراض العالم الإسلامي فإنه يمكنه تحسين أوضاعها واحتوائها، لذلك فإنهم لا يكفون عن الوصول إلينا من تلقاء أنفسهم كما فعلوا في صباح يوم ما في سبتمبر 2001.

وليس هذا هو ما يوضح بدقة كيفية مواصلة الولايات المتحدة لمثل هذا المنهج بنجاح أكثر أكبر من هذا الذي حققته. ولكن هناك بعض النقاط الجديرة بالذكر في ضوء ما تم تفسيره:

أولا، بينما يجب أن نواصل الانفتاح الاقتصادي والديمقراطي فإننا نهدف أولا لجعل العالم الإسلامي عالما غير آمن للتطرفية سواء كانت هذه التطرفية إسلامية أو قومية عربية أو بعثية. ويعني هذا معارضة صارمة لجماعات مثل حماس والإخوان المسلمين ولأنظمة مثل النظام السوري والإيراني، بالرغم من المطالب المتزايدة للتوصل إلى تفاهم معهم جميعا. كما أننا يجب أن نتوصل إلى تفاهم بحدود يمكن تحقيقها بالتدخل في السياسات الإسلامية. إنا نحتاج بالتحديد إلى أن نفطن إلى حقيقة أن النموذج الغربي للأشكال السياسية والاجتماعية لا يمكن أن تكون بناءة.

ثانيا، أن تجربة ما سمي بوثبة الأنبار للقادة القبليين ضد القاعدة يعد تذكيرا واضحا على أن العالم الإسلامي لا ينقسم بين حفنة من المتطرفين وأغلبية واسعة من المعتدلين – كما تم تأيده بشكل كبير عقب أحداث الحادي عشر من سبتمبر – الذين يمكنهم التحالف معنا بكل سهولة. وفي المقابل فإن المجتمعات الإسلامية تنقسم على الأقل إلى ثلاث كتل وهي: "ما قبل الحديث"والذي يتألف بشكل رئيسي من رجل القبيلة والفلاحين والعربان وما شابههم، ثم تأتي من بعد ذلك كتلة "الحديث" وهم المدنيون والمتعلمون ومن عرفوا في مجتمعاتهم باسم الطبقات الوسطي وفي النهاية تأتي كتلة "المعادين للحديث" وتتألف في الغالب من الإسلاميين وبعض عناصر حزب البعث وجماعات أخرى فاشية.

وحتى الآن فإن العديد من جهودنا لتعزيز الديمقراطية كانت تستهدف الجماعة الوسطى وهي الأكثر انسجاما معنا. وفي جميع الأحوال فإن هذا ليس لا يعد أكثر العناصر المهمة سياسيا. وما أخذناه من العراق هو أنه من الممكن، وهو في الحقيقة أمر ضروري، أن نعزل المعادين للحديث من خلال إيجاد تحالفات بين الطبقة الوسطى المتحضرة وبين القبائل.

ثالثا، يمكننا البحث عن طرق للعناية بفكرة القومية في العالم الإسلامي، لأن المجاهدين يمقتون ويخافون من فكرة القومية العربية والإسلامية. وقد رأينا مؤخرا الفوز الخارق للعراق في كأس أسيا العام الماضي والذي يؤكد على تحولها لدولة ما بعد البعث مؤكدة أن القومية العراقية مشتركة بين السنة والشيعة والأكراد كل فيها سواء.

وفي النهاية، وبالرغم من أن العوامل الداخلية التي قامت بشكل أساسي بعمل الكثير لشل القاعدة كانت، إذا جاز التعبير، محفورة في صفاتها الوراثية، فإنهم لم يتوقفوا حتى تقوم الولايات المتحدة بتثبيت نفسها من خلال القدرة على هزيمة عصابات بن لادن المسلحة بشكل نسبي في أفغانستان وبشكل كلي في العراق. إن أهمية هذه المواجهات لا تتمثل فقط في القتل الواقعي أو أسر قيادة القاعدة أو جنودها بل في إظهار امتداد قوة الولايات المتحدة وما يقابله من ضعف القاعدة للعالم الإسلامي. وفي النهاية فإن هزيمتها قد هزت صورة الأسطورة الإسلامية بأن المجاهدين يضاهون الولايات المتحدة، تماما مثل حرب الستة أيام التي انتصرت فيها إسرائيل في 1967 والتي جعلت من ذرائع القومية العربية المادية سخرية وعاجلت ناصر بهزيمة ساحقة.

أما الآن فإن حكومة إيران بالجوار قد استثمرت ما مقداره 20 مليار دولار من ثروتها القومية الهزيلة ومن قوة هيبة النظام في البرامج النووية. وبعيدا عن القضية المتأصلة لضرورة التخلي عن هذه البرامج لما تمثله من تهديد علي المصالح الأمريكية، فإنه من الواجب علي الأقل إدراك إمكانية تدميرها السريع، إلى جانب تحالف الإيرانيين مع قادتهم وهو ما يقدم تأثيرا معارضا.

وهذه الاقتراحات إنما تمثل جزءا من سياسة، ولكن السياسة الفعالة تعتمد فوق كل شيء على الفهم الصحيح للشعب والمكان والأشياء التي يمكن تطبيقها. كما أن الحديث يكون

خاطئا إذا ما كان حول الحضارة الإسلامية. وفضلا عن ذلك فإن هناك عالم إسلامي هذا العالم الذي تشرذم وأصبح متعنتا. كما يقوم العالم الإسلامي من حين لآخر باتهام أو الصراع داخل العالم غير الإسلامي كما فعلوا في التسعينيات. واليوم فإن اليهود يشكرون لنا أفعالنا. وفي ظل هذا التشرذم الداخلي تكمن قوتنا وتكمن فرصتنا وربما كان هناك احتمال إصلاح العالم الإسلامي نفسه.

بريت ستيفنس عضو في مجلس رؤساء المحررين في جريدة وال ستريت ومؤلف "الرؤية الدولية" للجريدة، عمود أسبوعي.